أولاً - الحِكمة من مشروعية الصيام:

شرع الله تعالى صيام شهر رمضان لحِكمة عظيمة، هي: تحقيق التقوى؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 381]، وتقوى الله - تعالى - تكون باتِّباع شرعه وعبادته وطاعته بفعل ما أمر به وترك ما نَهى عنه؛ وذلك أن الصيام تربية على ترك بعض المُباحات فترة محدّدة استجابة لأمر الله - تعالى - فإذا استجاب المسلم لترك ما هو مُباح في الأصل، فلَلأَنْ يمتنع عما حرّمه الله - تعالى - في كل وقت وحينٍ أولى.

فالصيام مدرسة يتربى فيها المسلم على طاعة الله - تعالى - فمن لم يتربّ في هذه المدرسة فهو كالطالب يدخل المدرسة ويخرج منها ولم يتعلّم القراءة والكتابة، فلا بد أن يتميّز المسلم في صيامه بتقوى الله - جل وعلا - فيترك ما اعتاده من التقصير في الواجبات؛ مثل: ترْك صلاة الفجر، وترك الصلاة مع الجماعة، كما أنه يَحرِص على ترْك ما اعتاده من المنكراتَ، مثل: عقوق الوالدين، وشرب الدُّخَان، وحَلقِ اللحية، ومتابعة الأفلام الهابطة، والقنوات الفاسدة، ومُشاهَدة صور النساء بأي طريق، وليعزم على التوبة، والاستمرار على ما اكتسبه في رمضان من عمل الصالِحات وترك المُنكَرات.

ثبَت في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن لم يدَعْ قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدَع طعامه وشرابه))[1]، وهذا الحديث أصل عظيم في بيان الحكمة من مشروعية الصيام؛ فقد بيّن فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله - تعالى - لم يشرَع الصيام لأجل الامتناع عن الطعام والشراب ونحوهما من المباحات في الأصل، وإنما شرَع الصيام لحكمة عظيمة هي في حقيقتها ما ذكره الله - تعالى - في كتابه الكريم وهي تقوى الله - جل وعلا - فـ: ((قول الزور)): الكذب وقول الباطل، ((والعمل به)): يعني العمل بالباطل، ((والجهل)): السّفه، سواء أكان سفهًا على النفس أو على الآخَرين.

ويدخل في الجَهْل جميع المعاصي؛ لأنها من الجهل بالله وعظيم قدره وشرعه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: 71]، قال ابن عباس - فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا رضي الله عنهما :- مَن عمل السوء فهو جاهل؛ من جهالته عمل السوء[2]، وقال أبو العالية: إن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجَهالة[3]، وقال قتادة: اجتمع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأوا أن كل شيء عُصي [الله] به فهو جَهالة، عمدًا كان أو غيره[4].

وقد دلّ الحديث السابق على أمرَين:

الأول: أنه يتأكّد على الصائم ترك الذنوب والمعاصي أكثر من غيره، وإلا لم يكن لصيامه معنى.

الثاني: أن الذنوب والمعاصي تؤثّر في الصوم فتَجرحه وتُضعف ثوابَه، وإلا لم يكن لتخصيصها بالذِّكر في هذا الحديث معنى.

ورُوي عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أنه قال: إذا صُمتَ فليَصُم سمعُك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودعْ أذى الخادِم[5]، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامِك، ولا تجعل يوم فطرك وصومك سواءً[6].

ثانيًا - أسباب التقوى في رمضان:

أسباب التقوى في رمضان كثيرة، منها:

أولاً: فتح أبواب الجنة، فلا يُغلَق منها باب، وفي هذا إيذان بكَثرة الأعمال الصالِحة في رمضان، وترغيب للعاملين بطاعة الله - تعالى.

ثانيًا: إغلاق أبواب النار فلا يُفتح منها باب، وفي هذا إشعار بقلّة المَعاصي من أهل الإيمان في رمضان.

ثالثًا: تصفيد الشياطين جميعًا أو مرَدَتهم، وفي هذا إشارة إلى رفع عذْر المكلّف كأنه يُقال له: قد كفّت عنك الشياطين فلا تتعلل بهم في ترك الطاعة ولا فعل المعصيّة، فما بقي إلا هواك ونفسك الأمارة بالسوء، فجاهِدها على مرضاة الله - تعالى.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغُلقت أبواب جهنم، وسُلسِلت الشياطين))؛ متّفق عليه[7].

رابعًا: أن الصيام يُذكّر بالزهد في الدنيا، وذلك بما شرع الله فيه من الامتناع عن أعظم شهواتها، وهي شهوتا: البطن والفرْج.

خامسًا: أن الصيام يُعوّد النفس على الامتناع عن المَحبوبات والشهوات والعوائد طاعة لله - تعالى - وابتغاء لمرضاته، وفي هذا تعويد لها على عموم الطاعات التي هي حقيقة التقوى.

سادسًا: أن الصيام يُضعِف البدن، فيؤدي به ذلك إلى البُعد عن فعل الشر وارتكاب المعاصي.

سابعًا: أن الصيام في رمضان عبادة مُشتركة لعموم المسلمين، فيحصل به التعاون على الخير والتنشيط على العبادة، فكل الناس يتعبّدون معًا ويَستشعِرون التقوى معًا، وكثير منهم لا يرضى التهاون والتكاسُل في هذا الشهر، ولا يَرضى المَعصية ولا جَرح صومه، فتَشعُر أن الطاعة حاصلة من الجميع في البيت والشارع والمسجد مما يَزيد الإيمان والتقوى.

ثامنًا: ما هيأ الله - تعالى - فيه من أسباب المَغفرة، وهي كثيرة، بيانها في الفقرة التالية - إن شاء الله تعالى.

ثالثًا - أسباب المَغفِرة في رمضان:

أسباب المغفرة في رمضَان كثيرة، منها:

السبب الأول: صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ كما دلّ عليه حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه))؛ متفق عليه[8].

السبب الثاني: قيام رمضان؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه))؛ متفق عليه[9].

السبب الثالث: قيام ليلة القدر؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدّم من ذنبِه))؛ متفق عليه[01].

السبب الرابع: اجتنابُ كبائر الذنوب، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ((الصلوات الخَمس، والجُمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مُكفِّرات ما بينهنّ إذا اجتنَب الكبائر))؛ رواه مسلم[11].

السبب الخامس: التوبة إلى الله - تعالى - من جميع الذنوب، وهي واجبة دائمًا، ووظيفة العمر كله في رمضان وغيره، فينَبغي على المسلم الحرِص على التوبة وتجديدها دائمًا، فقد كان النبي يَتوب إلى الله دائمًا، كما في حَديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةً))؛ رواه البخاري[21].

وعن الأغرّ المُزني - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: قال: ((يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرّة))؛ رواه مسلم[31]، بل قال عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما :- ((إن كنا لنعدُّ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المَجلس الواحد مائة مرة: ربِّ اغفر لي وتبْ عليّ، إنك أنت التواب الرحيم))؛ رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وصحّحه الترمذي وابن حبان[41].

ورمضان كغيره من الأوقات، بل هو أولى بالتوبة وتجديدها؛ لأنه زمن فاضل، فالأعمال الصالحة فيه أفضل من غيره، والتوبة من أفضل الأعمال الصالحة.

وقد قسّم الله - تعالى - الناس إلى قسمين لا ثالث لهما، فقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11]، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله :- قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقَع اسم الظالم على من لم يَتب، ولَا أظلَم منه لجَهله بربه وبحقّه وبعيب نفسه وآفات أعماله؛ اهـ[51]، وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: واتّفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور، ولا يَجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة؛ اهـ[61].

فالواجب علينا أن نُبادِر في أيام الإقبال على الله - تعالى - ونُقلع إقلاعًا عامًّا عن جميع الذنوب، فهذه فرصة العمر وما يدرينا لعلها لا تتكرّر مرةً أخرى، فالتوبة التوبة يا عباد الله، والأوبة الأوبة إلى الله في هذا الشهر الكريم الذي تُقبِل فيه النفوس على الله - تعالى.

وفي اجتماع هذه الأسباب الكثيرة للتقوى في رمضان لا يكون للمسلم عذر في مُجانَبة التقوى وترك أسبابها، وهي لا تتهيّأ له في غير هذا الشهر كما تهيأت فيه، فلا يَنبغي أن يكون المسلم عاجزًا عن تَحصيل التقوى بعد أن هيّأ الله أسبابها الكونية والشرعية.

وفي إقبال أكثر الناس على الطاعة في هذا الشهر تحقيق لإعجاز تشريعي عظيم يَتجلّى لنا بتحقُّق التقوى في هذا الشهر لكثير من الناس مما لم يكن مُتحقّقًا في غيره من الشهور.

رابعًا - أثر الصيام في التعامل مع الآخرين:

الصيام مدرسة يتربّى فيها المسلم على تقوى الله - تعالى - والتقوى تتضمّن حسن التعامل مع الآخَرين، وذلك بسلوك الأخلاق الحسنة التي دعا إليها الإسلام، وتجنُّب الأخلاق المذمومة التي حذّر منها الإسلام، فلا بدّ أن يظهر أثرُ الصيام في ذلك على صاحبِه، وهذا ما أرشد إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((وإذا كان يومُ صومِ أحدكم فلا يرفث ولا يصخَب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم))؛ متفق عليه[71].

فيَنبغي للصائم أن يتجنّب ((الرّفَث)) وهو: الكلام الفاحش، و((الصخَب)) وهو: رفع الصوت على الناس من الغضب ونحوه، كما أن عليه ترك الاسترسال مع من خاطبه بالكلام الخارج عن الأدب واللياقة، وذلك بترك الرد عليه، مع إشعاره بالمانع له من ذلك، والباعث له على التزام حُسْن الأدب ألا وهو الصيام، وليقل له بصريح العبارة: ((إني امرؤ صائم)).

وليعلم الصائم أن هذا الخلُق ليس خاصًا بحال الصيام، ولكن الصيام هو المدرَسة التي يَنطلق منها المسلم إلى محاسن الأخلاق وكريم السجايا؛ قال الله - تعالى -: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: 36]، والمعنى: أنه إذا خاطبَهم جاهل بكلام سوء، ردوا عليه بكلام حسَن ﴿ [البقرة: 38]، وقال تعالى:وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًايسلَمون به من الإثم، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء: 53].

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[1] رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ [الحج: 30 :5) (2251 (0175)، وفي كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمَل به في الصوم .(1804)

[2] رواه الطبري في تفسيره :4 892، تفسير سورة النساء آية 17.

[3] رواه الطبري في تفسيره :4 892، تفسير سورة النساء آية 17.

[4] رواه الطبري في تفسيره :4 892، تفسير سورة النساء آية 17.

[5] هكذا هو في جميع الروايات التي وقفتُ عليها ((الخادم))، وبعض مَن ينقله

يقول: ((الجار))، ولم أقف عليه بهذا اللفظ، فالظاهر أنه تصحيف.
[6] رواه ابن المبارك في الزهد (ص: (461 (1308) وابن أبي شيبة في مصنفه :2 271 (0888)، والبيهقي في شعب الإيمان :3 317 (6463)، وفي إسناده انقطاع كما بيّنه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص: .(20
[7] رواه البخاري في كتاب بَدء الخَلق، باب صفة إبليس وجنوده :3 1194 (3013)، ومسلم في كتاب الصيامَ، باب فضل شهر رمضان :2 758 .(1079)
[8] رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان :1 22 (83)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقَصرِها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح :1 523 .(760)
[9] رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان :1 22 (73)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقَصرِها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح :1 523 .(759)
[10] رواه البخاري في كتاب صلاة التراويح، باب فضل ليلة القدر :2 709 (0191)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقَصرِها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح :1 523 .(760)
[11] رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجُمعة إلى الجُمعة ورمضان إلى رمضان مُكفّرات لما بينهنّ ما اجتُنبت الكبائر :1 209 .(233)
[12] رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي - صلى الله عليه وسلم - في اليوم والليلة، :5 2324 .(5948)
[13] رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، :4 2075 .(2702)
[14] رواه أحمد :2 12، وأبو داود في أبواب قراءة القرآن وتحزيبه، باب في الاستغفار، :2 85 (6151)، وهذا لفظه، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس :5 494 (4343)، وابن ماجه في كتاب الأدب، باب الاستغفار :2 1253 (4183)، والبخاري في الأدب المفرد (ص:912) (726)، والنسائي في السنن الكبرى :6 119 (29201)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصحّحه ابن حبان :3 206 (729)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة :2 89 :(556) إسناد صحيح على شرط الشيخين.
[15] مدارج السالكين :1 178.
[16] شرح صحيح مسلم :17 95، أول كتاب التوبة.
[17] رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شُتم، :2 673

(5081)، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، :2 806 .(1151)

كاتب المقالة : عبدالرحمن بن فهد الودعان الدوسري
تاريخ النشر : 21/07/2013
من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com